لوحات من حياة ناشطة

نهلة غندور

نهلة غندور من مواليد بيروت ١٩٥٧. أمّ لشاب في العشرين، وفتاة في السادسة عشرة. أصيبتْ بشلل الأطفال في العام ١٩٥٨ وهي في الأشهر الأولى من العمر.

في بدايات الحرب اللبنانية في أواخر السبعينيات عملتْ في الحقل السياسي والاجتماعي. وفي نهاية العام ١٩٨٢ انقادت طواعيةً إلى العمل في حقل التأهيل مع أهالي الضحايا والناجين من المجازر. ومنذ ذلك الحين وهي تعمل مع الأطفال المصابين بإعاقات، ومع أسرهم.

تَشْغل منصبَ مديرة روضة تأهيل الأطفال التابعة لـ «مؤسسة غسان كنفاني الثقافية» الكائنة في مخيّم مار إلياس في بيروت. متخصصة في العلاج الانشغالي للأطفال، وهو حقل يعنى بتدريب وتربية الأطفال المصابين بإعاقات بالاعتماد على الذات في حقول حياتهم المختلفة، بغضّ النظر عن القدرات التي يتمتعون بها.

١ ـ الأقطاب

في نهاية كل عام نَجْمع بعضَنا حول طاولة، بصرف النظر عن شكلها، ونقيِّم كلَّ ما اختبرناه وما استطعنا تنفيذَه. ومع تكدّس السنين نعاود تأكيدَ الخاصّ والفريد في هذه التجربة. إنّها تجربة مخاضُها غريب، وغرابتُها لا تَنْحصر في الإبداع وحده بل تمتدّ إلى استمرارية تناقضاتها القطبية التقليدية وتفاعلها: مسلم / مسيحي، فقير/ غني، لبناني / فلسطيني، معاق / غير معاق، متحضّر / تقليدي، خبير / عادي، ذكر / أنثى، كبير / صغير...

اجتمعتْ هذه الأقطابُ في مساحة ضيقة في أصغر مخيّم في بيروت. وبدأنا العمل بتناقضيْن رئيسيْن ومبدأين متباعدين: توق إلى الانفتاح وإصرار على التقوقع. فكان سعيُ «المصاب منّا بإعاقة» إلى الانخراط في العالم الذي أُجبر قَسْرًا على الخوف منه، وسعيُ «المصاب منّا بالصحة والعافية» إلى الانكفاء والافتخار واحتكار الإنجازات.

عَمِلَ كلٌّ منّا بإخلاص وكدّ لتثبيت مبادئه في الحياة. في بادئ الأمر، صَعُبَ علينا الالتقاءُ؛ فكانت الثقافةُ تفسَّر بالتعالي، والديموقراطيةُ بالاختبار لكشف الأسرار، والسماحةُ بالاستغباء، والعطفُ والحنانُ بالتملّق والهرطقة: «ماذا تقصدين بسؤالي كلَّ مرة عن رأيي في هذا الموضوع وذاك؟،» «ما مرادُكِ من الاستفسار عن سلوك هذا الطفل؟،» «تسعين إلى السؤال والاستشارة الدائمة حبّاً باختبار نواياي!»

لقد كان قرارًا لاواعيًا، ذلك الذي يسيِّرنا دائمًا ويشدّنا إلى الوقوف بعزيمة: مجموعةً من الأطفال والكبار المصابين بإعاقات نسير بخطًى حذرةٍ يوميّاً، متفادين السقوطَ، متحاشين الانتقادَ خوف الاستسلام، متشبّثين بما بقي لدينا من قوة.

واجهْنا القذائفَ بالانتقال من منطقة إلى أخرى، والجهلَ بالاطّلاع والبحثِ وتطويرِ المهارات، والتفرقةَ برحابةِ الصدر والتقبُّل.

يُطْلب منّي أحيانًا خطُّ سطورٍ لها علاقةٌ بالتجربة الشخصية والعامة للإعاقة. لكنّني في كلّ مرة أحار أين أُموضع الإعاقة: أهي بدعة خَلَقها الإنسانُ ليسودَ الآخرَ؟ أمْ هي حدود رسمتْها المجتمعاتُ للَجْم شعوبها؟

فإذا سَلَّمْنا جدلاً بمثل هذه التساؤلات، فإنه في نهاية المطاف ينتابني إحساسٌ خجولٌ دفينٌ ومريح بفرحي بإعاقتي!

٢ ـ أصعب طريق

ـ ما أصعب طريق تسلكينها؟

ـ طريقي إلى عملي.

أصل باكرًا. أستجمع قواي وأرتقي الدرجاتِ الأربعَ. أُمسك الدرابزينَ وأَقْبض باليد الأخرى على عكازيّ. درجةً درجةً أصعد، وأصل إلى بوّابة المخيم. أُعيد توزيعَ عكازيّ ليحيطا جسدي، وأبدأ الطريق.

طريقُ المخيم، حيث مكانُ عملي اليومي، طريقٌ ضيقةٌ متعرجةٌ مغلقةُ الجانبين بجدرانِ بيوتِ أهل المخيّم. اعتدتُ السيرَ في هذه الطريق متجنِّبةً الحفرَ والانحدارات أكاد لا أطمئنُّ إلى تخطّي حفرةٍ حتى تلامسَ قدمي نتوءًا تجري من تحته ساقيةُ ماء. أحاول الابتعادَ عن الماء، فأجد جدارًا أتكئ عليه مخافةَ الوقوع. تواكِبُ خطواتي ماسورةُ ماءٍ، فتغيِّر اتجاهَها تارةً إلى اليمين وتارةً إلى اليسار. لطالما استوقفتْني هذه الانعطافاتُ؛ فرغم مشكلتي المزمنة مع الاتجاهات والأبعاد كانت الماسورةُ مرشدي ودليلي.

يتَّسع الممرُّ في منتصف الطريق، فيتشعّب منه زقاقٌ قصيرٌ، في آخره تجمُّعُ بيوتٍ يصل إلى المدخل الثاني للمخيم. في هذا المكان يعيد إليّ الضوءُ المتَغلغلُ وحدة ارتباطي بالعالم الذي جئتُ منه.

تتكرر خطواتي على مرّ السنين، تَزْحف البيوتُ، وتكثر الجدرانُ، ويضيق الممرّ. أتابع طريقي بتؤدة، فتنساب إلى مسمعي أصواتُ أهالي البيوت آتيةً من شبابيك حديدية.

صمد منزل «كايتي» طوال هذه السنين، فاقدًا الأبوابَ والشبابيكَ، تماما كحال هاتيْن الغرفتيْن الفارغتيْن اللتيْن يسكنهما أليكس وميشال وأختاهما. تواسي طريقي قطةٌ وكلابٌ، لكلٍّ منها قصةٌ، وجميعُها تعيش في منزل كايتي المضياف. تلامِس خزّاناتُ الماء الجدرانَ الخارجيةَ للبيوت، وتنساب المياهُ الضحلة بين الشقوق المنغرسة أرضًا.

أجتاز الممرَّ لأبلغَ «الروضة،» مكانَ عملي. تنتشلني الآمالُ بعيدًا عن الكواليس، وتَزْرعني في هذه الفسحة الملوَّنة النابضة حيث تستقبلني وجوهٌ باسمةٌ. أجول مستذكرةً ما طرأ عليّ وعلى المكان طوال عشرين عامًا. أشعر بالدفء يلفّني، فأمضي.

الساعةَ الثامنةَ يتوافد الأطفالُ تباعًا. يَعْبق المكانُ بالحركة والصوت. أتنقّل بين الغرف، وأجول بنظري في خليّة النحل التي انهمك أفرادُها ـ ذكورًا وإناثًا ـ في العمل.

قال لي طبيبٌ مهاجرٌ في كندا خلال إحدى زياراته لنا للمساهمة في مساعدة الأهل على تقبّل إعاقة أطفالهم وتخطّي مشاكلهم: «إنّ الوضع المعيشي لأهلنا في المخيم يُحْبطني! لا أستطيع رؤيةَ جارتكم العجوز تَحْمل قَدْرَ الماء على رأسها وتَصْعد السلَّم إلى منزلها للاستحمام! تُشْعرني هذه الصورة بعجزي. لا أستطيع العمل هنا!»

أجبتُه بتعجب أنّ هذا الوجود وهذه الحقيقة أرضٌ خصبةٌ للعمل؛ ففي كل زاوية وفي كل ثغرة فرصةٌ للتغيير.

تراودني هذه الحادثةُ كلما رأيتُ أطفالاً يَلْهون في الممرّات، وشبّانًا وشابّاتٍ يَجْهدون للحصول على عملٍ، ورجالاً عائدين من أعمالهم المؤقّتة، ونساءً يسعين جاهداتٍ إلى زرعِ أملِ الاستمرار.

في هذا الممرّ الضيق تختلط مساحاتُ البيوت والطرقات، وتضيع حدودُ المشاعر وتتغير معاني القيم، وينصهر زمنُ الأجداد والشبّان.

المخيّم ـ مخيّم المهجرين والنازحين والفقراء ـ مساحةٌ ضيقةٌ مملوكةٌ وغيرُ مملوكة، نقطنها مؤقّتًا، وجودُنا مرتهَن، ومصيرُنا مبهَم.

أُوصِدُ الأبوابَ عصرًا وأعود إلى الممر الضيق، تعبةً مثقلةً بالأحلام.

٣ ـ إجازة عامل التنظيفات

على غير العادة استقبلتني أكوامُ النفايات، المتراصّةُ هنا والمبعثرةُ هناك، تمتزج معها من حينٍ إلى آخر مياهٌ خضراءُ وترابٌ موحِل. رائحةٌ قويةٌ مقزِّزة تَفْرض نفسَها بقسوة. جرذ يركض أمامي ويختبئ في حفرة إسمنتية. على مدار الدقائق في هذه الطريق النحيلة التي أرتادها يوميّاً ولا أشعر بغرابتها، لم يفارقْني الأملُ باختفاء هذه النفايات الدخيلة.

طرقتُ البابَ الحديدي، دخلتُ وجلستُ على كرسيّ. شعور بالغضب يلفّني وأتساءل بصوت مرتفع حانق: «كيف يَسْمح مديرُ المخيم بهذا الوضع؟» فأعرف أنّ عامل النظافة في إجازة.

٤ ـ مشكلة ومصيبة

«هناك فرق واضح وشاسع بين المشكلة والمصيبة.»

كانت المرة الأولى التي سمعتُ هذا القول في إحدى الدورات الجامعية حينها قال لنا أستاذُنا إنّ المشكلة هي حدث مستعصٍ ومؤلم، ويتطلّب جهدًا ومثابرةً وإيمانًا بالتغيير، ولكنّ أسّ الموضوع هو وجود الحلّ؛ فالحلّ في المشكلة أكيدٌ بغضّ النظر عن الوقت. المهم أن لا تُترك المشكلةُ بلا حلّ، وإلاّ تحوّلتْ واقعًا يسيِّرك ويقودك إلى الانحطاط!

أمّا المصيبة فهي حدث يقع عليك مثل الصاعقة، يأتيك من غير احتساب وينكبّ عليك فيهشِّمك ويبعثر أجزاءك. والمهم هنا استحالة الحلّ، فما عليك إلاّ أن «تبلعَ الموس» وتترفّع عن مشاعرك وتقرر أيّ الطرق نقطة نجاتك!

استعنتُ بهذه الحكمة وجعلتُها مرشدي. وكأيّ مواطن عاديّ تأرجحتْ حياتي بين المشكلة حينًا والمصيبة أحيانًا أخرى، فأرضى بقدري هنا وأرفض انحطاطي هناك.

تذكّرتُ تلك الحكمةَ عندما هرعتْ جيني بين الأروقة سعيًا وراء إطفاء الحريق المزعوم في منزلها. وما إنْ وصلتْ إلى المفرق المجاور لبيتها حتى تهاوت مغميّاً عليها. كان الجيران منهمكين في إسعاف والدة جيني التي غابت عن الوعي أيضًا. أُطفئ الحريقُ وظهر أنّ جيني قد نسيت الطبخةَ على النار. أزال إيلي، زوجُ جيني، الأسودَ عن جدران المطبخ خلال ساعة، وعادت المياهُ إلى مجاريها. اتصلتُ بجيني هاتفيّاً لأهنئها وقلتُ معاتبةً:

«ما هذه السخافة؟ يغمى عليك لأمرٍ بهذه التفاهة؟!»

ردّت جيني: «عندما وصلني أنّ المنزل احترق بدأتْ ساقاي تسابقان الريحَ، وما إنْ أوشكتُ على الوصول حتى انقطعتْ أنفاسي وهويتُ أرضًا.»

فرددت: «لا يمكن أن تستمري بحياتك على هذا المنوال! اتبعي خطاي عندما يصادفك أمرٌ من هذا النوع تريّثي حتى تواجهيه؛ فإذا كان مشكلةً فابدإي بحلها بتروٍّ، أمّا إذا كان مصيبةً فيمكنك الانهيارُ والإغماء!»

٥ ـ عكّا أم بيروت

من أنتِ؟ ما أصلُكِ وفصلُكِ؟ وما هي جنسيتك، لبنانية أمْ فلسطينية؟

مجبولةٌ بفلسطين، بليمون شجر فلسطين وبعصارات زيتون فلسطين وشواطئ بحر فلسطين. بسور عكّا المنيع، وبالقدس ويسوع المسيح، وبحيفا ومزار البهائيين، وببلحة جامع الغبسية، وبالفرس الذي امتطته جدتي قبل قرانها، وبسيرة عنترة، وآيات القرآن الكريم.

مجبولة بعتبات بيوت فلسطين، وبشجرة الياسمين في حديقة منزل جدي، وبديوكه ودجاجاته التي أطعمته بيض فلسطين طوال تلك السنين!

ولدتُ تحت مرقد عنزة في لبنان، فترعرعتُ في بيروت، وعشتُ أيامَها، وتناقضات أحيائها، وكثرةَ نزاعاتها، وتتابُعَ حروبها، وعنجهيةَ أهلها، وتنوُّع ثقافاتها، وتكدُّسَ سياراتها، وتوالي فصولها، وارتفاعَ جبالها، وتمازجَ أديانها! فجدي الصياد الذي جلس سنواتٍ طوالاً على الرصيف خارج دكان «نعيم» يمازحني كلَّ يوم عصرًا وأنا في طريقي سيرًا من منزلنا إلى منزل خالتي والمدرسة الحكومية التي علّمتْ فيها أمي أربعًا وأربعين سنةً، وصوتُها الرنّان، كُلُّ ذلك صِلة وصلي ومنشإي. هذا لبناني، وهذه بيروتي، وهؤلاء بيوتُ خالاتي وأخوالي، وتلك أقدامُ طفولتي ومراهقتي وأولادي وأولاد جيراني!

فكيف لي أن أختار؟

فأنا لست من فلسطين ولستُ من لبنان، لا من عكّا ولا من بيروت. إنّ شجر الليمون لا يَعْرف الحدود، ومعاصرَ الزيتون لا تفرّق بين الصخور، وشواطئَ البحر لا تغربل الرمول.

٦ ـ فوق القدرة على الاحتمال

جاءنا مبلغ من المال لشراءِ مفروشاتٍ وأدواتٍ مطبخية للجارة التي احترق منزلُها. ذهبتُ واشتريتُ لها ما هو ضروري، محاولةً الاقتصادَ هنا والتبديلَ هناك كي يكفي المبلغُ لشراء أكبر عدد ممكن من الأواني والأثاث.

تشكرني أم محمد أكثر من مرة، وتسير مسرعةً وعباراتُ الشكر والامتنان تختلط بأنفاسها. لكنّها بعد ساعة ترجع متوترةً قلقة:

«أنا لن أرضى بهذا! أنا لا أستطيع قبول هذه الأشياء! إنّ ثمنها ثروة! إنّه تبذير! أنا لا أستطيع تحمّل هذا!»

٧ ـ عنف

ما معنى كلمة «عنف» أو بالأحرى «تعنيف»؟

من السائد أن تنحصر معنى هذه الكلمة بالناحية الفيزيائية، بما فيها ممارسةُ الضرب والاغتصاب. ولكنّنا نعيش في غيبوبة العنف!

فما معنى أن تُحرَمَ من قراءة كتاب؟

وما معنى أن تُفْرض عليك السِّيَرُ والأخبارُ نفسُها؟

وما معنى أن تُقطع عنك الكهرباء والماء؟

وما معنى أن تعتاد الشحَّ والعوز؟

وما معنى أن لا تستغرب المذلّةَ والاحتقار؟

وما معنى أن تقتنع بأنّك حمار؟

بيروت